تأثير هجرة بني هلال وبني سليم على التركيبة السكانية في شمال افريقيا ق 5هـ – ق 11م

علي بالقاسم الحرابي
عضو هيئة التدريس بكلية الاداب بجامعة بنغازي
Ali.allharabi9@gmail.com

الملخص

إن الخلل الذي حدث في العلاقة بين الخلافة الفاطمية في مصر وتابعها في أفريقيا المعز بن باديس أدى على توتر شديد بينهما وصل إلى حد القطيعة وبات ابن باديس يشكل خطرا على الفاطميين ، مما جعل الخليفة الفاطمي المستنصر بالله يفكر ملياً في إيجاد الطريقة التي تمكنه من التخلص من هذا الخطر الداهم ، فلجأ إلى أسلوب الحرب بالوكالة ، حيث دفع – بناءًا على مشورة وزيره اليازوري – بقبائل بني هلال وبني سليم التي كانت تسكن صعيد مصر وتشكل مصدر قلق للفاطميين إلى محاربة ابن باديس ، فتحركت هذه الجموع البشرية من مصر إلى القيروان معقل ابن باديس ، وكان يرمي المستنصر بالله بهذه الخطوة الجريئة تحقيق شيء من إثنين ، إما التخلص من هذه القبائل أو التخلص من ابن باديس، وتحقق ما كان يطمح إليه الخليفة الفاطمي ودخلت هذه القبائل القيروان وعاثت فيها فسادا ، فزال بذلك مُلك ابن باديس إلا بعض المناطق الساحلية ، لكن الأمر الأهم كان التغير الذي طرأ على التركيبة السكانية في شمال أفريقيا عامة وليبيا خاصة ، والتأثيرات السياسية والاقتصادية والثقافية التي خلفتها هذه القبائل على تلك المناطق ، سوف نطرح هذا الموضوع في سياقه التاريخي و الاجتماعي معتمدين على المنهج التاريخي الذي يغوص في ثنايا التاريخ لاستجلاء الحقائق العلمية و تقديمها في قالب سردي.

الكلمات المفتاحية / بنو سليم – بنو هلال – الدولة الفاطمية – الخليفة المستنصر بالله – المعز بن باديس.

Abstract

The imbalance that occurred in the relationship between the Fatimid Caliphate in Egypt and its follower in Africa, Al-Muizz Ibn Badis, led to severe tension between them, which reached the point of estrangement, and Ibn Badis became a threat to the Fatimids, which made the Fatimid Caliph Al-Mustansir Billah think carefully about finding a way that would enable him to get rid of This imminent danger, so he resorted to the method of proxy warfare, as he pushed - on the advice of his minister Al-Yazuri - the tribes of Banu Hilal and Banu Selim, who lived in Upper

Egypt and were a source of concern for the Fatimids, to fight Ibn Badis, so these human groups moved from Egypt to Kairouan, the stronghold of Ibn Badis. With this bold step, Al-Mustansir Billah was aiming to achieve one of two things, either getting rid of these tribes or getting rid of Ibn Badis, and what the Fatimid caliph had aspired to was fulfilled. These tribes entered Kairouan and rampaged in them, And thus ended the property of Ibn Badis except in some coastal areas. But the most important thing was the change in the demographics in North Africa in general and Libya in particular, and the political, economic and cultural influences that these tribes left on those areas. We will present this issue in its historical and social context, relying on the historical method that delves into the folds of history to clarify scientific facts and present them in a narrative format.

Key Word \ Banu Hilal - Banu Selim - The Fatimid Caliphate - Al-Mustansir Billah - Al-Muizz Ibn Badis.

المقدمة

شكّلت منطقة المغرب الإسلامي البيئة التي حفلت بالأحداث التاريخية المهمة ، منها ذلك الصدام الذي نجم بين المذهبين السني والشيعي في القرن الخامس الهجري ، على أن هذا الصدام لم يظهر واضحاً إلا من خلال خلاف سياسي على السيادة بين الفاطميين والزيريين ، واللافت أن بني زيري وصلوا للسلطة بمباركة من الفاطميين ، بيد أن تطور الأحداث أوجد طرفا أخر دخل بقوة في ميدان الصراع وهم قبائل بني هلال وبني سليم ، تلك الجموع البشرية التي حركها خلفاء الدولة الفاطمية نحو الغرب لتحقيق مصلحة مزدوجة تمثلت في التخلّص منهم بعدما اضحوا مصدر قلق في جنوب مصر ، والتخلص بواسطتهم من الخطر الذي بات يشكله المعز بن باديس ومن وراءه بني زيري.

لقد عُدّت هذه الخطوة من الأهم الخطوات التي رسمت واقعاً اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً في شمال افريقيا ، صحيح أن هذا الحدث كان عنيفا في كثيرٍ من مراحله ؛ إلا أن نتائجه على المدى البعيد خلقت نوعا من الاستيطان لهذه القبائل في شمال افريقيا أدى إلى صبغ هذه المنطقة بالصبغة العربية بما حملته معها من ثقافات وعادات .

تكمن الإشكالية الأهم التي انطلقت منها هذه دراسة – التي اختصت بموضوع الهجرة القصرية ذات الأهداف النفعية لقبائل بني هلال وبني سليم – في سرعة استيعاب هذه القبائل لدعوة الفاطميين بالتحرك غرباً من جهة ، وقوة اقتناعهم بقدرتهم على القضاء على الدولة الزيرية من جهة أخرى ، دون أن نغفل ذلك التأثير الذي صنعته هذه القبائل على الواقع السياسي والاجتماعي في شمال أفريقيا ، وهذا يتطلب استخدام المنهج التحليلي الذي يهتم بالسرد والتحليل لأحداث التاريخية بغية استجلاء ما يحيط بها من غموض.

علاقة الفاطميين بالدولة الزيرية الصنهاجية في أفريقية

يعتبر إعلان قيام الدولة الفاطمية في المغرب الإسلامي حدثاً مهماً ومفصلياً في تاريخ الدولة الإسلامية السياسي والاجتماعي والاقتصادي ، وتحوّلاً حاسماً في البُنية العقائدية التي كانت سائدة في المنطقة ، وفي هذا يقول السيد عبد العزيز سالم (1999 : 507) : " وكان لهذا النجاح الذي أحرزه الفاطميون آثار حاسمة في تقرير مصير بلاد المغرب لأمدٍ بعيد " ، لكن الفاطميون باتوا يرون أن هذه البلاد لا تصلح لإقامة دولتهم ، ولعل السبب يكمن في شح الموارد الاقتصادية إضافة للأزمات التي شهدها المغرب ، فاتجهت أنظارهم لمصر حيث الثروات الوفيرة والموقع الجغرافي المجاور للدولة العباسية خصم الفاطميين في المشرق(سرور: 1995: 59)

لم تكن فكرة انتقال الفاطميين إلى المشرق وليدة تلك الفترة التي أعلنوا فيها قرارهم بالتحول إلى مصر ، فهي لم تغب عن أذهان زعمائهم ، فقد كانوا يتطلعون منذ قيام دولتهم في المغرب إلى احتلال مصر ، وأخذوا يعدون العدة للزحف نحو الشرق والاستيلاء على وادي النيل ، ولعل الحالة المتردية في مصر خلال الفترة الواقعة بين سقوط الدولة الطولونية سنة 292 هـ / 906 هـ وقيام الدولة الإخشيدية سنة 323 هـ / 923 م وعودة مصر إلى حظيرة العباسيين شجعت هذه الظروف وفي هذا الوقت بالذات الفاطميين للتفكير جيداً في الاستيلاء على وادي النيل ، بالإضافة إلى أنّ الفترة التي تولى فيها عبيد الله المهدي زمام الأمور في دولتهم الوليدة في القيروان ؛ كان هناك مخاض في الشمال الأفريقي ، فالدول آنذاك ثلاث : الأغالبة في تونس ، والدولة الرُستمية في الجزائر ، ودولة الأدارسة في مُراكش ، تعيش في ضعفٍ شديد وفوضى عارمة.

مما يجذر ذكره أنّ الفاطميين قاموا بمحاولات عدة لاحتلال مصر ، كانت الأولى سنة 301 هـ ، والحملة الثانية 302 هـ ، أما الحملة الثالثة كانت 307 هـ ، والحقيقة أن هذه المحاولات الثلاث قد باءت بالفشل (مفتاح :1978: 59) ، فأجّل الفاطميون تحقيق أطماعهم إلى وقت لاحق ، ويمكن أن نرجع ذلك أيضا إلى بعض الثورات التي قامت في تلك الفترة كثورة أبي زيد مخلد ابن كيداد والتي استمرت عشر سنوات من 326 هـ إلى 336 هـ (مؤنس: 1997 : 149-150).

- **الاستيلاء على مصر :**

في عام 341 هـ آلت الخلافة الفاطمية على الخليفة المعز لدين الله الفاطمي الذي كان " واسع الثقافة ، يعرف كثيراً من اللغات ، شديد الولع بالعلم والآدب ،كما كان حسن التدبير ، مهيب الجانب"(شلبي : 1966: 328) وهو الخليفة الفاطمي الرابع ، فاستغل الظروف السيئة في مصر ، والضعف العباسي في تلك الفترة ، فاتجه بكل قواه إلى الشرق ، وأخذ يعد لغزو مصر ، واضطلع بمهمة الفتح قائده جوهر الصقلي الذي اجتاحت قواته برقة . وسرعان ما استولى على الإسكندرية ، وكان أهم إنجازاته

بناء الجامع الأزهر ومدينة القاهرة ، وبعد أن استتب له الأمر أرسل إلى مولاه المعز لدين الله الفاطمي بالقدوم إلى مصر ، فدخل المعز القاهرة سنة 362 هـ (الزاوي : 1969 : 197) بعد أن استخلف بلكين بن زيري الصنهاجي واليا على كل بلاد أفريقية ، والواقع أن العلاقة بين الفاطميين وبني زيري كانت علاقة وطيدة ، فقد كان زيري بن مناد الصنهاجي يمثّل ركيزة مهمة من ركاز الدولة الفاطمية وكانت له مساهمات في إنقاذ هذه الدولة حينما تعرضت لثورة أبي يزيد مخلد الخارجي(العروي : 2001 :37) ، وقد ظلت دولة زيري هذه تحكم أفريقيا من سنة 362 هـ / 972 م حتى سنة 543 هـ / 1148 م ، وكان من أهم أمرائها المعز بن باديس شرف دولة 406 هـ / 453 هـ (القلقشندي : 1915 : 234) .

– بداية الخلاف بين الزيريين والفاطميين :

على الرغم من التفاهمات التي تمت بين الدولة الفاطمية والزيريين بشأن حُكم أفريقيا تحت الراية الفاطمية إلا أن الامور بدأت تتجه – مع مرور الوقت – إلى التأزّم ، خاصة أن هناك مؤشرات دفعت الفاطميين إلى الشعور بالريبة تجاه التحركات التي قام بها ابن باديس ، منها الاستئثار بالأموال التي ترد من الجباية في أفريقيا ، فعوضا على إرسال هذه الأموال إلى الدولة الفاطمية كما كان متفقاً عليه ؛ فقد تم الاستفادة منها وصرفها على الدولة الزيرية ، الأمر الذي أدى إلى حدوث انتعاش بالدولة ورفاهية وازدهار علمي واجتماعي وفكري(حسن : 2000 : 109–110) ، وهذا ما لم يكن يروق للفاطميين .على الرغم من أن الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله اراد كسب ولاء المعز ابن باديس إسوة بما كان يفعله الخلفاء الفاطميون مع أبيه وجده ، حيث أرسل له هدية مع وثيقة تنص على ضم برقة إلى دولته ، وقد استقبل ابن باديس هذه الهدية بالطبول (المقريزي : 1996 : 433) ، لكن ابن باديس كان يُضمر شيئاً أخر وهو الاستقلال عن التبعية للفاطميين فهو لم يكتفِ ببناء دولته من الداخل ، لكنه سعى إلى توثيق علاقته بالدول المجاورة مثل ملك السودان وملك الروم ، وقد ذكر ابن عذارى (1983 : 344) أن ابن باديس تلقى في عام 426هـ هدايا من ملك السودان وأخرى من ملك الروم لم يرى مثيلهما ، ثم كانت الأحداث التي قطعت شعرة معاوية بين الطرفين وهي حملات القمع التي تعرّض له الشيعة في عهد المعز بن باديس خاصة في مدينتي القيروان وباغية في تونس الأمر الذي أدى إلى القضاء على التواجد الشيعي في بلاد المغرب (أحمد الخلايفة ، الزاوي : 2017/2016 :24) ، فقد كان المعز بن باديس ميالاً إلى السنة ، بعيداً عن التشيع لمذهب الفاطميين ، متحولاً عن عادة آباءه وأجداده من أمراء صنهاجة الذين كانوا يدينون بالمذهب الشيعي والسير في ركاب الدولة العبيدية .

كان ابن باديس يُكاتب وزير الخليفة المستنصر أبي محمد الحسن بن علي اليازوري في محاولة لاستمالته والوقيعة بينه وبين الخليفة الفاطمي ، لكن الوزير اليازوري كان متفطناً لهذا الأمر ، فلم تنجح تلك المساعي من ابن باديس (ابن ابي

دينار، :1386هـ: 83) ، ثم كانت الخطوة المفصلية في علاقته بالدولة الفاطمية ، حينما اعلن خلع الخليفة الفاطمي المستنصر بالله والدعوة للعباسيين ، والحقيقة أن العلاقة التي كشفت عن نفسها من خلال هذا الإعلان بين ابن باديس والخلافة العباسية في بغداد كان لها تأثيرها في هذا القرار الجريئ من ابن باديس

استحكم الخصام بين المعز بن باديس في المغرب وبين الخليفة الفاطمي المستنصر بالله الفاطمي ووزيره اليازوري في مصر بعد أن قرر المعز بن باديس التنصل من الولاء للفاطميين والتحول إلى الولاء للعباسيين في بغداد ، وقطع الخطبة للمنتصر الفاطمي ، ومحا اسمه السكة والطراز والرايات ، وخطب للقائم بأمر الله أبي جعفر عبد الله العباسي في بغداد ، ومما زاد الأمر تعقيداً قيام المعركة بين أهل السنة وبين بقايا الفاطميين الشيعة انتصر فيها أهل السنة لمذهبهم (ابن عذارى: 1983 :274).

قرّر الخليفة الفاطمي القضاء على الأسرة الزيرية ، وإنهاء مُلك المعز بن باديس ، ولكن القبائل البربرية كانت حائلاً بينه وبين القضاء على خصمه اللدود ، فجنح إلى السياسة والمكر والمداراة ، ولم يتخذ خطوة ارتجالية مُتسرّعة في معالجته للوضع القائم في أفريقية ، ولكنه بحث الامر على نارٍ هادئة ، واضعاً نُصب عينيه عدة اعتبارات كموقف القبائل مثلاً ، فاستشار وزيره اليازوري الذي اقترح عليه خطة للتخلص من قبائل بني هلال وبني سليم الوافدين على مصر الذين أساءوا العلاقة مع أهل مصر والتخلص في الوقت نفسه من ابن باديس .

وقد وجد هذا الاقتراح هوى في نفس المستنصر فأقره واستحسنه وهو بهذا يضرب عصفورين بحجر واحد ، حيث يتخلص من فساد بني هلال وبني سليم في مصر ، وفي نفس الوقت ينتقم من الزيريين الذين شقّوا عصا الطاعة على الفاطميين ، فاتصل بالهلاليين ومنّاهم مُلك أفريقيا وخيراتها وقال لهم : " أعطيكم المغرب وملك المعز بن بلكين ، العبد الآبق فلا تفتقرون" (ابن خلدون : 1971 :274). وكتب إلى ابن باديس قائلاً :" أما بعد فقد أرسلنا إليكم خيولاً فحولاً وحملنا عليها رجالاً كهولاً ، ليقضى الله أمراً كان مفعولاً "(ابن الأثير :1980: 55).

- **أصل بني هلال وبني سليم**

يصنّف الإخباريون الجنس العربي الذي أقام في الجزيرة العربية منذ القدم إلى عرب بائدة وعرب باقية، فالعرب البائدة هم الذين اندثروا ولم يعد لهم خبر مثل عاد وثمود ومدين وطسم وجديس وغيرهم (جواد علي: 1993: 292–293) ، وقد ذكر بعضهم القرآن الكريم على أنهم أقوام هلكوا. قال تعالى ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَة. فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ. وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾(سورة الحاقة : آية 4–6) ، وأما العرب الباقية فقد قسمت أيضا إلى قسمين: العرب العاربة

ويقصد بهم القحطانيون أو عرب الجنوب وهم الذين سكنوا جنوب الجزيرة العربية، وسموا بالعاربة لأصالتهم العربية، والعرب المستعربة أو العدنانيين، والذي يوصفون بعرب الشمال ، ويقصد بهم أبناء النبي إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام (برو : 1996: 57) ، حيث كان إسماعيل عليه السلام لا يتكلم العربية، فلما قدِمت قبيلة جُرهم القحطانية من اليمن إلى مكة، صاهرهم وتعلّم منهم العربية، وأصبحت فيما بعد لغته ولغة أبناءه من بعده (ابو الفداء : 1999 : 126–127) ، وما يدفع نحو هذا الرأي، أننا نجد في كتب المعاجم "أن القبيلة من ولد إسماعيل عليه السلام، مثل السبط من ولد إسحاق للتفريق بينهما" (الجوهري : 1990 : 1797) ، أي أن العرب المستعربة الذين يرجعون في النسب إلى نبي الله إسماعيل ليسوا من العرب الأصليين، لأن إسماعيل هو ولد النبي إبراهيم عليهما السلام وإبراهيم كلداني من أور (برو : 1996: 57) ، بيدا أن هذا القول يتحفظ عليه المؤرخ أحمد أمين، ويعتبره من صنع الإخباريين اليمنيين الذين أرادوا نفي الصفة العربية الأصيلة عن العدنانيين أو ما يعرف بعرب الشمال، وأنه وجه من أوجه الصراع بين البداوة والحضارة(1969: 6) ، وقد نجد شيئا من الواقع حيال هذا القول، إذ أن الصراع اليمني القيسي بلغ أوج قوته واستبانت ملامحه مع بدايات الدولة الأموية وما بعدها، ولمّا كان أشهر النسابة العرب هم من عرب اليمن مثل عبيد بن شريه اليمني الذي عاصر معاوية بن أبي سفيان ، وهشام بن محمد الكلبي الذي أصبح مقربا من الخليفة العباسي المهدي؛ فقد نال هؤلاء من بني أمية خاصة، والقيسية عامة، ورفعوا من قدر اليمنية (أبوضيف : 1986 : 27) ، ومن هذين القسمين تتفرع قبائل و عمائر و بطون و فصائل عديدة ، وقد كانت الجزيرة العربية موطن أغلب قبائل العربية ومن هذه القبائل بنو هلال الذين يرجع نسبهم إلى عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوزان (ابن حزم : 1983: 266) ، ويزيد ابن خلدون فيرفعهم إلى قيس بن عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان(1971 : 15) ، وإذا تعمّقنا في تفصيلات بطونهم نجدهم يتكونون من أبناء هلال بن عامر وهو شعته وناشر ونهيك وعبد مناف وعبد الله (ابن حزم : 1983 :273) ومن هؤلاء الأبناء تكوّنت البطون والأفخاذ وكثرت أعدادها حتى وصلت إلى مرتبة الشعوب ، يمكن حصرها عندما دخلت إلى المغرب بما يلي : الأثبج وجشم ورياح وزغبة وعوف(ابن خلدون : 1971 :16)، يطلق اسم الهلاليين لبني هلال ، على العرب الذين هاجروا ودخلوا افريقية كمحطة الاولى خلال القرن الخامس هجري ، و الحادي عشر ميلادي .

أما بنو سليم فنسبهم يرجع إلى سليم بن منصور بن عكرمة بن قيس بن عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ، وبنو سليم من اوسع بطون مضر وأكثرها جموعا ، ويمكن حصر شعوبهم التي دخلت إلى المغرب وهي : زغب ، ذياب ، هيب ،عوف (دي اغستيني : 1975 : 220). ، كانت مواطنهم الأولى في الجاهلية و صدر الإسلام بعالية نجد (الزائدي : 1986 :57). وما يهمنا هنا من هذا العرض أن قبائل بني هلال وبني سليم يرجعان في الأصل إلى العدنانيين.

اختلف المؤرخون ومن تناول دراسة هذه الهجرات في تعدد أفرادها ، فقد ذكر الشيخ الطاهر الزاوي (1962 : 45) أن عددهم 400 ألف نسمة، وذكر آخرون أنهم أكثر من ذلك بكثير ، ووصفهم بعض الباحثين بأنهم شعوب كبيرة ، وهذا دليل على كثرتهم .

يرى علي برهانة أنه لم يكن لهاتين القبيلتين – بنو هلال وبنو سليم – شأن يُذكر قبل الإسلام على الأقل في شبه جزيرة العرب (1994: 45) ، على الرغم من أن الشيخ الطاهر الزاوي (1962 : 220) يقول:" كانت هذه القبائل لها السيادة في الجاهلية والإسلام" . والحقيقة أن السيادة قبل الإسلام وبعده كانت لقريش ، والذي يبدو أن هناك شيء من الواقعية فيما طرحه الدكتور برهانة من أن هذه القبائل هي قبائل خاملة قبل الإسلام وبعده وحتى في الدولتين الأموية والعباسية ، ولم نجد لهم في كتب التاريخ رجالا اشتهروا سواء في الحرب أو القيادة أو الأدب والشعر إلا ما ندر ، كمشاركتهم المتواضعة في أيام العرب قبل الإسلام كيوم الوفد الذي هزمت فيه هلال ، أو يوم حوزة الذي شارك فيه أبناء الشريد أخوة الخنساء السلمية وكان ذلك اليوم لسليم.

وفي الإسلام شارك بنو سليم في معركة حنين ضد المسلمين مناصرين لهوازن (كحالة : 1985 : 1221) ، واشتركوا في حرب القرامطة ضد الفاطميين ولكن بعد اندحار القرامطة في عصر الخليفة الفاطمي العزيز بالله عام 368 هـ وانتزع منهم الشام قام الخليفة بترحيل أنصارهم من بنى سليم إلى مصر .

ومن رجالهم في الجاهلية والإسلام الشاعر حميد بن ثور الأرقط وقبيصة من المخارق ، وعاصم ابن عبدالله بن هلال ومن نسائهم المشهورات ميمونة وزينب زوجا الرسول _ صلى الله عليه وسلم _ وتماضر بنت الشريد الخنساء التي اشتهرت بشعرها في رثاء اخويها (الكلبي : 1986م : 273–274).

ذكرنا سابقا أن المعز بن باديس الصنهاجي قد تولى إمارة أفريقية عام 406 هـ وفي عهده حدثت تغريبة بني هلال وبني سليم ، ولكن ابن خلدون (1971 : 55) يقول : "هناك فرقة من الهلاليين قد انتقلت قبل التغريبة الكبرى وسكنت إقليم برقة " ولكنه لم يذكر تاريخ نزوحها .

بداية الزحف نحو الغرب (التغريبة):

لم يكن انتقال بني هلال وبني سليم إلى أفريقية نتيجة الصراع المذهبي والسياسي بين مختلف الأطراف تحقيقاً لرؤيا سياسية محددة فحسب ، ولكننا نجد العامل الاقتصادي يلعب دوراً هاماً لا يقل أهمية عما سبقه ، فقد ذكر بعض المؤرخين أن مصر مرت بسنوات عجاف في السنوات 444هـ وما بعدها ، وهذا التاريخ يصادف تغريبة بني هلال إلى أفريقيا .

انطلقت القبائل العربية إلى الغرب في القرن الخامس هجري – الحادي عشر الميلادي –حاملةً معها كل ما لديها من ثقافات وعادات ومُثال ، وهم في تغريبتهم كانوا على دفعات متتالية ، فدخلوا أفريقية عام 442 هـ (ابن الأثير: 1980 :55).

كانت بنو رياح وبنو زغبة من بني هلال في الطلائع الأولى للتغريبة ، فاحتلوا منطقة طرابلس و قابس ، وانضموا إلى بني غانية ضد الموحدين ، ثم تحولوا إلى الغرب بعد أن زاحمهم بنو سليم الذين هاجروا بعدهم بنحو عشرين سنة ، وهذه سنة الحياة فالقادمون الجدد يدفعون من كان قبلهم إلى مناطق أخرى ويستولون على ما بأيديهم .

وعندما استقروا في المغرب الإسلامي انغمسوا في الصراع الدامي ضد القبائل البربرية والدول الإسلامية في بعض الأوقات ، ودخلوا في تحالفات وتبعية في أوقات أخرى ، وأصبحوا عنصراً جديداً كان من ضمن العوامل التي غيرت التكوين السلالي واللغوي ، وأثرت في النظام السياسي للمنطقة ، حيث استعان بهم المرابطون ضد الموحدين ، واستعان المغامر قراقوش بعرب بني ذياب واستولى بمساعدتهم على بعض المناطق في طرابلس ، وفكّر بعض أمراء هذه الدول في نقل هذه القبائل المتمردة على الأندلس للسبب نفسه الذي ساقه الخليفة الفاطمي في بداية التغريبة .

يجب ألا يغيب عن بالنا أن هذه القبائل جميعاً لم يكونوا يفكرون في الاستئثار بالسلطة ، فلم يذكر التاريخ أن لهم تطلعات سياسية في تكوين دول كغيرهم من أصحاب النفوذ والطموحات لا والمذاهب ، لأنهم يمثلون مجتمعاً بدوياً بما تحمل هذه الكلمة من معنى ، بل همهم البحث عن الماء والكلأ ، وإن كان السياسيون قد زجوا بهم في آتون السياسة رغماً عن أجندتهم وذلك لتحقيق استراتيجيات محددة ، فعدم قدرة هذه القبائل على تكوين إمارة في بلاد المغرب ، لا يرجع الى الطبيعة البدوية التي ترفض الاستقرار ولكن عامل العصبية القبلية ، كان عاجزاً على تأسيس إمارة أو حتى انهاء الحكم الزيري. فالعصبية القبلية ، قد تكون قادرة فقط على زعزعة هذا النظام أو ذاك . ولكنها في حاجة الى عقيدة تجمعها (الفرحان : 2015 : 141).

اتفق بنو هلال وبنو سليم على اقتسام ما غنموه من أراضي ، فكان نصيب بني سليم المناطق الشرقية من ليبيا ، فقد ذكر القلقشندي (1980 : 106) أنهم بطون كثيرة وأنهم سكنوا برقة ، وقد تحدث عنهم بإسهاب ، وابن خلدون (1971: 265) أكد أن معظم سكان برقة وطرابلس من بني سليم ، واستوطنت بني هلال من طرابلس وما غربها ، ثم تخلت زغبة الهلالية عن طرابلس لصالح بنو سليم ، أي أن العنصر العربي في هذه المناطق في ليبيا هي من أصول بني سليم وخاصة بني ذياب ، وانتقل فرع منهم على سوكنة وفزان ، غيرهم من أبناء عمومتهم الهلاليين اندمجوا في الأحداث الدامية مؤيدين لكل الثورات ، فمنهم من ناصر الحفصيين ، ومنهم من ناصر الموحدين .

– نتائج هجرة بني هلال وبني سليم إلى أفريقية :

كان لهجرة القبائل العربية إلى شمال افريقية في القرن الخامس الهجري نتائج مهمة شملت الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وغيرت الكثير من العادات التي كانت قائمة في شمال أفريقيا ، بل نكاد نذهب إلى أبعد من ذلك ، فنعتبر أن الصبغة العربية التي نراها قائمة في شمال أفريقيا حاليا يعود الفضل فيها لهذه الهجرات ، والواضح أن المخالطة بين هذه القبائل المهاجرة والسكان المحليين كان الغلبة فيها لهذه القبائل ، وليس أبلغ من ذلك هو اتساع نطاق اللغة العربية والتعاليم الإسلامية بهذه المنطقة ، دون أن نهمل دور الفتح الإسلامي في عهد الخلافة الراشدة ومن بعده الدولة الأمية الذي جلب الإسلام لهذه المناطق .

ويمكن أن نوجز بعد التأثيرات التي طرئت على شمال أفريقيا من وراء هجرات بني هلال وسليم في الاتي :–

- **الناحية السياسية :**

استطاعت هذه القبائل أن تؤثر أيما تأثير في الكيانات السياسية في تلك المنطقة الممتدة من مصر إلى المغرب الأقصى ، مما أدى إلى انهيار حكمها ، وصولاً إلى انفراد مشايخ القبائل في أكثر مناطق أفريقية بالحكم والسلطة ، و هيمنت هذه القيادات القبلية على مقدرات البلاد ، نتج عنها قيام عدة دويلات قزمية محلية في المدن المختلفة مثل بني خرسان في تونس ، وبني جامع بقابس ، وبني مليل بصفاقس ، بل وصل بهم الأمر إلى ضرب السكة باسمهم ، وجباية الخراج لصالحهم تأكيداً لسيطرتهم على البلاد (حسن :1979 158 :).

كما أن انحسار نفوذ الدولة الزيرية في تلك الفترة إلى المناطق الساحلية نتيجة من نتائج هيمنت هذه القبائل على أفريقية ، مما أدى إلى اهتمامها بالنشاط البحري ، ونتيجة لضعف هذه الدولة طمعت فيها دولة أوروبية عدة منها النورماديون في صقلية حيث سقطت السواحل الأفريقية من مهدية حتى طرابلس الغرب في أيديهم (الغناي : 1998 : 30) .

- **الناحية الاقتصادية**

عاشت دولة بني زيري حالة من الانتعاش الاقتصادي وانعكس ذلك على أمرائها فكانوا يتصفون بالجود السخاء وقد أكد الكثير من الرحالة على هذا الازدهار الاقتصادي فقد نشطت الزراعة والصناعة فامتلأت خزائن الدولة بالأموال(العروي : 2000 : 88) ، ، وبمجيئ بني هلال وبني سليم تغيرت الكثير من المظاهر الاقتصادية التي كانت سائدة ، فمن المعروف أن

قبائل بني هلال وبني سليم قبائل عربية بدوية تعيش على تربية الحيوانات ، فنقلوا إلى المغرب خبرتهم في تنمية الثروة الحيوانية ، وخاصة الخيول العربية الأصلية . وساهموا في الزراعة ، وكان لهم الفضل في تعمير ليبيا من برقة إلى طرابلس ، ومنطقة الجريد بتونس في زراعة النخيل ، كما سيطرت هذه القبائل على طرق التجارة الداخلية بحكم استيلائهم على الصحراء .

- **الناحية الثقافية :**

أجمع كل من درس تغريبة بني هلال وبني سليم أن هاتين القبيلتين أثرتا تأثيراً كبيراً في تعريب المغرب العربي الإسلامي ، وهذا في حد ذاته فضل يُذكر لهم في الوقت الذي فشل فيه عرب الفتح الأوائل في ذلك ، فقد تحوّلت هذه المنطقة الممتدة من بلاد الجريد إلى المغرب الأقصى بلاداً عربية اللسان والثقافة ،كما اكتسب البربر عادات وتقاليد العرب الوافدين كسكني الخيام ، وركوب الخيل ، بل وبرعوا في لغة الضاد كأهلها .

وأخيراً فإن هذه الهجرة بقدر ما كان لها بعض الأضرار بالبلاد وخلّفت بالمغرب شيءً من الفوضى والخراب على خلاف الفتوحات الإسلامية الأولى ، كما أنها لم تأت هذه الهجرة بالإسلام بل وجدته ثابتاً راسخ الأساس في بلاد البربر(بل : 1969 : 166) ، إلا أن لها كثير من الإيجابيات كاندماج الدم العربي بالسلالات الأفريقية عن طريق المصاهرة والنسب بحكم المواطنة والاستقرار ، حتى اصبحت الهوية العربية في الشمال الأفريقي هي السمة الغالبة على معظم سكانه ، فلم نسمع أو نقرأ أن هجرات عكسية قد غادرت الشمال الأفريقي عائدة إلى موطنها الأصلي في الشرق العربي كما حدث لعرب الأندلس وإن كان لها التأثير في شتى المجالات ؛ فإن هذه التغريبة زادت من التنوع الشرائح الاجتماعية المستقرة في دول المغرب العربي ، وصبغت تلك الأقاع والتخوم بالصبغة العربية ، ونشرت اللغة العربية ، وثبتت دعائم الدين الإسلامي ، والمذهب السني ، وصنعت ملحمة شعرية رائعة ألهمت قرائح الشعراء الشعبيين بروائع من فنون الشعر الشعبي في أقطار المغرب العربي كل حسب لهجته المحلية .

الخاتمة

استطاع المعز بن باديس فرض سيطرته على بلاد المغرب مستفيدا من خلو الساحة برحيل الفاطميين ، وقام بخطوات جريئة تُظهر مدى رغبته في الاستقلال عنهم ، لعل أهمها حينما أعلن الولاء للعباسيين ، فكان لهذه الخطوة الأثر في تغيير المذهب الشيعي بالمذهب السني في تلك البلاد .

بيدا أن طموح ابن باديس تجاوز الحد في علاقته بالفاطميين ، وباتوا ينظرون للأمر على أنه يشكل خطراً داهماً عليهم ، لذا عجّلوا في التخلص منه باستخدام سلاح لم يدُر بخلد ابن باديس وهو ترغيب قبائل بني هلال وبني سليم التي كانت تقيم في جنوب مصر للولوج في بلاد المغرب والتخلص من خطر الزيريين .

لقد كان دخول هذه القبائل إلى شمال أفريقيا حدثاً مهما في تاريخ المنطقة السياسي والاجتماعي والديمغرافي ، وساهم الاختلاط الذي نجم بين هذه القبائل والقبائل البربرية الساكنة في بلاد المغرب في صبغ تلك البقاع بالملامح العربية والاسلامية ، وإذا كان الإسلام قد انتشر في هذه البلاد بفعل الفتح الإسلامي ؛ فإن الهوية العربية ترسّخت بفعل هجرات بني سليم وبني هلال ، وهذا في حد ذاته مكسبا حضاريا تنعم بفضله هذه المنطقة حاليا .

المصادر والمراجع

أولا المصادر :-

- ابن الأثير ، أبو الحسن علي بن الكرم الشيباني، (1980م) : **الكامل في التاريخ** ، ط1 ، بيروت دار الكتاب العربي ..
- ابن حزم ، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد القرطبي الاندلسي (1983م): **جمهرة أنساب العرب** ، بيروت ، دار الكتب العلمية .
- ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (1971م) : **كتاب العبر و ديوان المبتدأ والخبر وأخبار العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر– تاريخ ابن خلدون** – بيروت ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.
- الجوهري، إسماعيل بن حماد (1990م): **الصحاح في تاج اللغة وصحاح العربية**، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، ط 4 ، ج5 ، بيروت ، دار العلم للملايين.
- دي أغسطيني ، هينيريكو (1975م): **سكان ليبيا** ، تعريب وتقديم خليفة محمد التليسي ، ط1، بيروت ، دار الثقافة.
- ابن أبي دينار ، محمد ابن أبي القاسم (1386هـ) : **المؤنس في أخبار أفريقيا وتونس**، ط1 ، تونس ، مطبعة الدولة التونيسية
- ابن عذارى : أبو العباس أحمد بن محمد المراكشي (1983م): **البيان المُغرب في أخبار المغرب** ، تحقيق : ج . س وليفي برفنسال ، بيروت ، دار الثقافة.
- ابو الفدا ، عماد الدين إسماعيل (1999م) : **المختصر في تاريخ البشر** ، تقديم حسين مؤنس ، القاهرة ، دار المعارف.
- القلقشندي ، أبو العباس أحمد (1980م) : **نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب** ، تحقيق إبراهيم الإبياري ،ط2 ، بيروت ، دار الكتاب اللبنانين.

- : **صبح الاعشا في صناعة الإنشا** (1915م)، القاهرة ، المطبعة الأميرية .
- الكلبي ، هشام بن محمد بن السائب الكلبي (1986م) : **جمهرة النسب** ، ط1 ، تحقيق ناجي حسن ، بيروت ، عالم الكتب.
- المقريزي ، تقي الدين (1996م): **اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء** ، تحقيق جمال الدين الشيال ، ط2 ، القاهرة.

ثانيا المراجع :-

- أمين ، أحمد (1969م): **فجر الإسلام**،ط10 ، بيروت، دار الكتاب العربي.
- برهانة ، علي محمد (1994م): **سيرة بني هلال ظاهرة أدبية** ، ط1 ، سبها ، منشورات كلية الآداب والتربية.
- برو، توفيق (1996م): **تاريخ العرب القديم**، ط2 ، دمشق، دار الفكر.
- بل ، الفرد (1996م) : **الفرق الإسلامية في الشمال الأفريقي** ، ترجمة عبد الرحمن بدوي ، بنغازي ، دار ليبيا.
- حسن ، حسن علي (1979م): **دراسات في تاريخ المغرب العربي** ، القاهرة ، مكتبة الشباب.
- الزائدي ، محمد رجب (1986م): قبائل العرب في ليبيا ، ج1 ، بنغازي ، دار الكتاب العربي.
- الزاوي ، الطاهر (1962م): **تاريخ الفتح العربي في ليبيا** ، مصر ، دار المعارف.
- سالم ، السيد عبد العزيز(1999م): **تاريخ المغرب في العصر الإسلامي** ، الأسكندرية ، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر.
- أبو ضيف، مصطفى (1986م): **دراسات في تاريخ الدولة العربية**، ط4، الدار البيضاء، دار النشر المغربية .
- سرور ، محمد جمال الدين (1995م): **تاريخ الدولة الفاطمية** ، القاهرة ، دار الفكر العربي .
- شلبي ، أحمد (1966م): **التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية** ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية .
- علي، جواد (1993م): **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، ط2، بغداد، جامعة بغداد.
- الغناي ، مراجع عقيلة (1988م): **قيام دولة الموحدين** ، بنغازي ، منشورات جامعة قاريونس .
- كحالة ، محمد رضا (1985م): **معجم قبائل العرب** ، بيروت ، مؤسسة الرسالة.
- مؤنس ، حسين (1997م): **معالم تاريخ المغرب والأندلس** ، القاهرة ، دار الرشاد .
- مفتاح ، صالح مصطفى (1978م): **ليبيا منذ الفتح العربي حتى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر** ، ط1 ، بنغازي ، منشورات الشركة العامة للنشر والتوزيع و الإعلان.
- خلايفة ، أحمد ، ميلود الزاوي (2016م/2017م): **أثر العرب الهلالية في الحواضر الإسلامية المغربية – حاضرة القيروان خلال القرن 5 هـ / القرن 11م أنموذجا** ، رسالة ماجستير ، الجزائر ، جامعة حمة الأخضر بالوالدي.